عبدالله ناصر

فنّ التخلّي

مجموعة قصصية

23.8.2017.

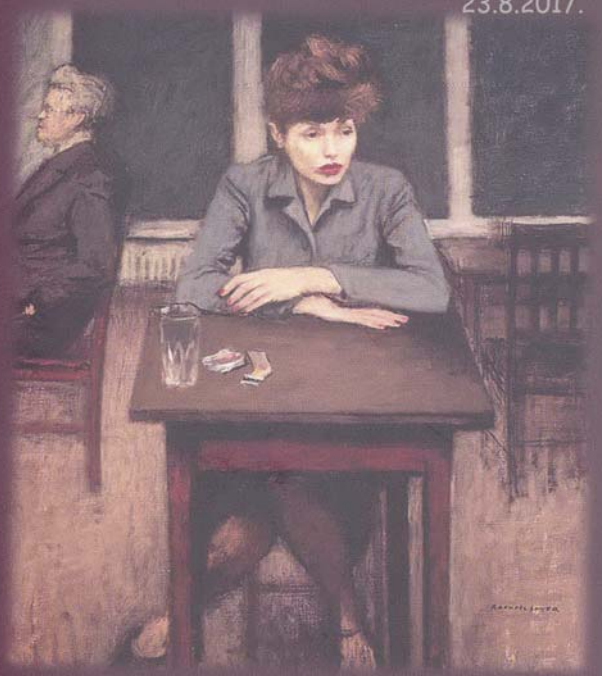

التنوير

عبدالله ناصر

فنّ التخلّي

مجموعة قصصية

المتوسط

عبدالله ناصر

فنّ التخلّي

مجموعة قصصية

الكتاب: فنّ التخلّي (مجموعة قصصية)
المؤلف: عبدالله ناصر
عدد الصفحات: 96 صفحة
الطبعة الأولى: 2016

الترقيم الدولي: 978-9938-886-77-1
رقم الناشر: 16/415-85

جميع الحقوق محفوظة لدار التنوير ©

دار التنوير للطباعة والنشر

مصر: القاهرة–وسط البلد–19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا) –الدور 8 – شقة 82
هاتف: 0020223921332
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
لبنان: بيروت – بئر حسن – سنتر كريستال، الهزيم – الطابق الاول –
هاتف : 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

إلى:

ماريو بينيديتي

موسيقى تصويرية

يرفض الخروج من غرفته قبل أن يعثر على الموسيقى التصويرية لهذا اليوم. لو كان يتمتّع بحدسٍ شبيه بالديجافو لما كان في حاجةٍ إليها. ربما ألهمه ذلك بعض اليقين أو حتى الشك بتعرضه لحادثٍ مروريّ في منتصف الطريق أو لرصاصةٍ طائشة تحوم في الهواء بحثاً عن جمجمةٍ لائقة. لن يفكّر حتماً بالخروج حتى الغد ما لم يكن عازماً بالطبع على التخلّص من حياته اليوم. يدرك جيداً مهارته الفطرية في المواظبة على التنبؤ بالأشياء بطريقة معاكسة تماماً. لقد حدثت كل الفواجع في حياته عندما كان يستبعد بكل زهوٍ حدوثها. يفكّر الآن بأن الموسيقى التصويرية لهذا اليوم تبدو صامتة بلا حركة، فيصطخب قلبه لأنها عندما تتوقّف في عروض السينما بالعادة تكون الفاجعة على وشك الحدوث.

خيارات التقدّم في السن

يتقدّم في السن بلا حيلة، ويتساقط أثناء ذلك، الكثير من شعره وأحلامه. تكبر المرايا بدورها فلا تحتفظ بشبابه مثلما يفعل ألبوم الصور. وتشكو عتبة الباب من هشاشةٍ في العظام، أما الباب فيخلط بينه وبين الزوار. يشيخ الطريق فيتوقّف حين يجد نفسه قد ابتعد كثيراً عن البيت، وتفقد المنارة بصرها فتغدو مثل نفق. تكبر حتى ألعابه فيغادر ـ لظروف العمل ـ قطاره الصغير إلى الأبد، ويصبح مسدّسه المائي قادراً على القتل.

كارما

ينفث بعيداً دوائر الدخان، فيجدها أسفل عينيه في الغد هالاتٍ سود، يتأمّلها فتُذكّره بالقوارب التي تحمل المهاجرين غير الشرعيين إلى سواحل أوروبا. يضع لإزالتها القليل من الكريمات الغنية بفيتامين ك، فيتساقط المهاجرون ـ يعانق بعضهم البعض للمرة الأخيرة ـ في قاع رئته كتلًا خضراء من البلغم. يستعين لإخراجها بالينسون والأعشاب الطبيعية، يسعل فتخرج صرخات الاستغاثة من صدره، الذي بات صلباً كما لو كان جرّة مصنوعة من الرخام لحفظ رماد الموتى.

قفزة الثعلب

كانت الحياة تعدو كل يوم نحوه مثل كرة قدم، فيتأخّر لثوانٍ فقط عن الإمساك بها، لتعبر ما بين ساقيه وتسير باستهتارٍ نحو الآخرين. لم يشكُ أبداً من رعشةٍ في يده أو عقله ولكنه الزمن ـ كما اعتاد أن يبرّر دوماً ـ الذي يتسارع بشكلٍ مفاجئ كلما حانت فرصته. كان يعيش على إيقاعٍ واحد ولنقل مثلاً أنه الفوكس تروت / قفزة الثعلب بخطوها الثنائي والرتيب بينما كانت أقداره تتمايل على إيقاع الرومبا الراقص. كان يتأخّر عن حضور مواعيده الهامة، وعن إبداء أسفه على ذلك أيضاً. كان يتأخّر على الشفتين السانحتين والخصر المُولع بالرقص فتسبقه إليهما قبلةٌ فطِنة وذراعٌ يقِظ. كان يتأخّر على الموت حتى اصطحب والديه، و على مجلس العزاء حتى تَخَاصم مع إخوته وأخواته. عاهد نفسه أخيراً أن يتعجّل ابتداءً من الغد، في الوقت الذي أخذت أقداره ـ التي خلت من الأحداث الهامة ـ تتراخى وتخطو كثعلبٍ عجوز.

فن التخلي

كان على أحدهما أن يجمع الضحك والبكاء من زوايا الفم والعينين. ويلملم أصابع الحب والمواساة مثل مشابك الغسيل من الكتفين. ويمسح المواعيد من فوق الطاولة، والمعانقات من تحتها. عليهِ أن يحمل المكالمات الليلية وأعياد الميلاد مغلّفةً بالوعود والقبلات إلى المرسل. أن يكنس الخطوات اللاهثة إلى اللقاء، وتلك المتثاقلة بعد أن يتدخّل ظرف طاريء لتأجيله. أن يقود السيارة ليلاً قاطعاً عشرات الكيلومترات ليتوقّف بجانب الطريق ويتخلّص من الماضي. وكان على الآخر أن يكفّ عن تخيّل ذكرياته الجميلة التي لم تحدث قط.

إرنستو تشي جيفارا

لم يوقظه كابوس أو منبه، بل شعوره بالذعر وإحساسه بأنهم قد يلقون القبض عليه في الطريق إلى العمل، أو من الممكن أن يحدث ما هو أسوأ من ذلك ويمسكون به أثناء أدائه لمهامه الاعتيادية في البنك على مرأى رئيسه الفضوليّ وبقية الزملاء الشامتين. سوف يخسر وظيفته حتماً ولن يحقّق حلمه بالذهاب إلى لاس فيغاس في احتفالات رأس السنة. سيقتادونه إلى المعتقل وسط نشيج زوجته، التي تجهل تماماً ميوله الثورية، ولن يكون بمقدوره اللعب مجدّداً مع أطفاله الثلاثة، وقد تُصاب والدته المريضة بجلطةٍ أخرى حال سماعها الخبر. سوف يلتقي بالجلّاد في الليلة الأولى والثانية والثالثة وسيبقى صامداً ما لم يتم انتهاكه بطرق تفتقر إلى الذوق والرقي، وتدفعه رغماً عنه إلى الانهيار والإفصاح عن نشاطاته السرية التي لا تتجاوز بضعة شتائم نابية اعتاد أن يخفيها تحت لسانه كلّما تسلّم مخالفة مرورية.

كلمات أخيرة قبل الانتحار

كان في منتهى الهدوء حين صارح ظله برغبته الجادة في الانتحار اليوم. ربّت على كتف الظلّ وهو ينظر إلى عينيه قائلاً: بوسعك البقاء هنا أو العودة إلى القرية إن أحببت، أرجو أن لا تتبعني بعد الآن. مضى في طريقه لكن الظلّ، كما لو كان كلباً من فصيلة بيرنارد، لم يتوقّف عن اللحاق به مما أغضب سيده الذي قام بصفعه وتهديده لأوّل مرة، ثم ذهب بكل إصرار ليضع حدّاً لحياته. ألقى بجسده دون تردّد في منتصف الطريق العام فارتمى ظلّه ببسالة ودفعهُ بعيداً عن شاحنة النقل التي مزّقته في الهواء. عاد مشوّشاً إلى البيت، تاركاً ظلّه في الخلف على بعد أمتار ينزف بلا ضمادات.

خزي

أيقظها بعنف، وقام بطردها خارج غرفته بلا رحمة كما لو كانت مومساً. لملمت بفزع جسدها الخمسيني الذي كان يلوذ بقميصٍ سكّري من الحرير وغابت في نوبةٍ من البكاء المر. كانت مغامرته الأولى بعد ثلاثة عقود من الحب والذكريات العظيمة. نامت إلى جانبه في الأسبوع التالي سيدة خمسينية أخرى وتكرّر الأمر حتى بات من عاداته السيئة التي لا يمكنه التخلّص منها. كان مريض الزهايمر يصحو ويجد بجواره كل صباح امرأة خمسينية مختلفة فيأكله الندم على أفعاله المشينة.

تاريخ آخر

ارتدّت الرصاصة التي تزن عشرين غراماً وتبلغ سرعتها خمسين ميلاً في الدقيقة بشكل مباغت إلى صدر القاتل. واستدارت الدبابات النازية من طراز ليوبارد زاحفةً عن عمد لتطبق حصارها على مدينتها الأم برلين. وعادت القنابل الذرية أدراجها في رحلة شاقة من هيروشيما وناجازاكي لتقصف واشنطن ونيويورك. والتفّ المنجنيق يرشق بسهامه المشتعلة دون هوادة جحافل الجيش المغولي ثم سقطت الصخرة الكبيرة، التي كان يحملها قابيل، لتشج رأسه بدلاً من أخيه الغارق في النوم.

حيوات جان فالجان

كان مأخوذاً إلى أبعد حد بجان فالجان بطل رواية البؤساء إلى درجةٍ لم يستطِع معها تقبل موته في الصفحات الأخيرة على الرغم من يقينه بكونها ضرورة فنية. وبما أنه أخفق في التخلّص من هذه المرارة، خصوصاً وأنه يعيد قراءتها دائماً كمن يأمل بالعثور على خاتمةٍ أخرى. وقف أمام مكتبته العريضة، بكل جنون، عاقداً عزمه على أن يستبدل جان فالجان بجميع أبطالها. شطب بكل حزم اسم راسكولينكوف بطل الجريمة والعقاب وآلمه أن يتحوّل رجل نبيل مثل جان فالجان إلى قاتل. هرع إلى كتابٍ آخر ولكن نابوكوف في لوليتا جعله يتقزّز من بطله العظيم الذي يبذل قصارى جهده في إغواء القاصرات بكل خسّة ودناءة. وعندما قرأ مسخ كافكا تخلّى عن جان فالجان كما فعلت أسرته بمجرّد أن تحوّل إلى حشرة.

موهبة الصدى

كانت شخصيته تشبه الصدى إلى حدٍّ بعيد. كان ميّالاً إلى الصمت والخجل ولكنه، بالرغم من ذلك، لا يتأخّر عن الظهور حين يحين الوقت ولا يتلعثم أبداً. ربما كان التكرار مشكلته الوحيدة ولكنه تغلّب عليها بمرور الوقت بل صار يستعذبها ولم يعد يشعر بألمٍ في الحلق أو حشرجةٍ في الصدر. كان يظن أنها موهبة حقيقية وإن افتقرت إلى شيءٍ من الأصالة والإبداع ـ فالبعض في النهاية يعيش بلا مواهب ـ وقد تقوده يوماً ما إلى النجاح وربما الشهرة. كان بارعاً فقط في الأدوار الثانوية لذا لم يلعب أبداً دور البطولة حتى في حياته الخاصة.

خصوصية

كان كتوماً مثل ستارةٍ مغمضة العينين، لا يعتريها الفضول لمعرفة ما يدور في الداخل، حتى عندما يعلو الصراخ إثر شجارٍ حاد أو مضاجعةٍ ساخنة، كانت توحي للآخرين بأن البيت ينعم بالقيلولة. كان يخفي السعادة تحت السرير بجانب آلامه التي كبرت وباتت في حاجة إلى غرفةٍ مستقلّة. ثم يطوي نفسه مثل جوربٍ وينام بداخل حذائه الرياضي. لم يكن يشبه الآجر، ولكن بوسع الحائط أن يعكس صورته مثلما تفعل المرآة بالضبط كما يقول رب عمله، الذي لم يعلم بوفاة موظفه في الأمس إذ تكتّم الراحل على الخبر ـ كما اعتاد طيلة حياته ـ ولم يتأخّر صبيحة اليوم عن الحضور.

فوبيا

يخاف الملل، يخاف التقويم وصرامته العسكرية التي تحتّم على الشهور أن تصطفّ في طريقها مثل سربٍ من النمل. يرجو، عقب نهاية الأسبوع، أن ينبثق يومٌ غير الأحد. أو ليكن الأسبوع عشوائياً مثل نرد، ولا مانع لديه أن يتكرّر السبت ثلاث مراتٍ على التوالي ما دام الأمر غير قابلٍ للتكهّن. أو على أقل تقدير أن يتغيّر ترتيب الأيام فتكون الجمعة في منتصف الأسبوع بدلاً من الثلاثاء. يخاف رتابة البحر الذي كان بوسعه أن يتوزّع إلى مجموعةٍ من الجداول والينابيع والشلالات وربما بعض الأمطار والندى. يخاف التكرار إلى درجة قد يتوقّف عن الحلاقة أو حتى عن الجنس ـ دون بلوغ النشوة بطبيعة الحال ـ حتى بات ينتابه الملل مؤخّراً عند حدوث الأشياء لأوّل مرة.

تحوّلات

كان الجار يجهل السبب وراء تحوّل الحمامة إلى نايٍ لا يكف عن النشيج عند شباك النافذة. كانت الحمامة في المقابل تتساءل لماذا تحوّلت بندقية الجار إلى قطٍّ طائشٍ يحوم حول عشّها الصغير؟ كان القطّ يقضي يومه بالكامل على الأريكة البيضاء يحاول أن يتذكّر متى تحوّل إلى مجاز؟!

عقوق

أنصب الكمين لوالدي عند الفجر، بتجاهل تحية الجار الطيّب، وأقوم باستدراجه بضرب أخي الصغير، والصراخ على ابنته المدلّلة. يتجاهلني وأتمادى في استفزازه بالخروج إلى الشارع والتعدّي على المارة لعلّه ينهض من الصورة الكبيرة، التي تربض على جدار المجلس، ويوبّخني!

كازانوفا

كان يكفيه أن تقوم إحداهن بقصّ شعرها على طريقة النجمة الأمريكية ميغ رايان حتى يقفز إليها متودّداً مثل كنغر. كان يعلم جيداً ـ والماضي معلمٌ وقور ـ أنها طريقة النساء الكلاسيكية وغير المجدية طبعاً في الخروج من مأزقٍ عاطفي. عندما تتخلّى المرأة عن ضفائرها بسهولة وبدون تأنيب ضمير، فهي بذلك تُلقي حبيبها المخادع إلى الشارع دون أن تخفي رغبتها العارمة في أن تدهسه شاحنة لنقل النفايات. كان يقف في الزمان والمكان الصحيحين مستعدّاً لتقديم مساعدته في انتظار سقوط الطائرة الورقية المنكوبة، مدركاً بأن القليل من اللطف والمواساة سيجعلانه يسبح بسعادة دلفين في برك الكاراميل والفانيليا. كان يعزو نجاحاته الغرامية إلى دقة ملاحظته التي قرّر أن يقيم لها احتفالاً بسيطاً بمجرّد أن تذهب رفيقته إلى الصالون في الغد لكي تقصّ شعرها للمرّة الأولى.

أحزانٌ ثقيلة

تلك الحدبة على ظهره هي كل ما تبقّى من الجبل.

تحضير أرواح

يعتقد أن الريشة التي سقطت من جناح نورسٍ أو غراب بدافع العجلةِ أو القِدم بمقدورها النهوض ومعاودة الطيران ولو لبرهة بمجرّد أن تعبر فوقها طائرة ورقية أو يرتفع في الهواء بالونٌ أحمر. يعتقد أيضاً أن عصا العاج لو أرهفت سمعها للجرّافات التي تحفر الطريق كما لو كانت أقدام فيلةٍ مهاجرة لأطلقت ولو لبرهة ـ بلا خرطوم بطبيعة الحال ـ نهيماً خافتاً للرفاق يستحلفهم بالله أن يعودوا لاصطحابها. كان يستشهد بطاولة الاجتماعات أو أي طاولة صغيرة من إيكيا ويضع فوقها سلةً من الفواكه فتعود إلى أغصانها الحياة لبرهة وتسقط على الفور تفاحة أو تفاحتين.

السعادة

كانت السعادة تبتعد عنه حوالي خمسة أمتار تقريباً، على الرغم من انطلاقهما معاً في الوقت ذاته كل صباح. كانت تقطع الشارع في طريقها إلى بيتهِ مغمضة العينين بكل طمأنينة، بينما كان عليه أن يحذر طيش السائقين وغفلتهم مما يجعلها تصل قبل انغلاق المصعد بثوانٍ قليلة فتسبقه وهو يصعد السلالم ـ دون أن يندلع الحريق ـ وعندما يقف أمام الباب بحثاً عن المفتاح كانت تنزلق تحته مثل رسالة. وفي البار تسبقه بكأسين أو ثلاثة مما يجعلهما في طوابق متباعدة وإن تقابلا حول طاولةٍ واحدة. حتى عندما يتولّى الحظ أو القوّاد أمر لياليه الساخنة، كان يستمع إلى تأوهات السعادة وهي تبلغ النشوة بينما لا يزال متردّداً في لعق الحلمتين. كان يقترب منها فقط عندما ينتحل ذكريات الآخرين، أولئك الذي يمتلكون السعادة وحدهم.

كان مشوّشاً فقط

في شقته الصغيرة بالطابق التاسع عشر، اعتاد أن يعيش وحيداً منذ زمن، وسيبقى كذلك حتى آخر يوم في حياته، لأنه كان يخلط بين الحب والألفة. كان يخلط أيضاً بين أصيص الزهور ومنفضة السجائر عندما يدخّن للدرجة التي كاد يفقد معها القليل المتبقّي من عقله إذ صار للرماد منظر الزنابق. وعندما بات يخلط بين الجدار والمرآة آمن بقدرته الخارقة على أن يكون لا مرئياً في بعض الأوقات. في يومه الأخير سيخلط بين السماء والبحر، وستعتريه رغبة عارمة بالذهاب هناك ولكنه للأسف سيخرج من النافذة التي صار يخلط بينها وبين الباب وسيتمزّق جسده أمام دهشة المارة الذين سيخلطون بدورهم بين رغبته في السباحة والانتحار.

حذاء رياضي للمشي

في تمام الساعة الثانية ظهراً يذهب في نزهته اليومية إلى ميدان إسبانيا. يقطع الكيلومترات الثلاثة المعتادة، مروراً بتماثيل دون كيشوت وخادمه الطيب سانشو، ثم ينعطف إلى اليمين عبر شارع القديس ليوناردو ملقياً في طريقه بقطع اليورو المعدنية لكل عازفٍ لم تسعفه الصدفة أو المهارة للعزف في دار الأوبرا، متفادياً الأرداف العريضة للمرأة المنحوتة على الرصيف بمحاذاة متحف الشمع الذي يعلوه أحد أندية التعرّي ـ لا يزال الوقت باكراً لتفتح أبوابها ـ ثم يستريح لدقائق في مقهى خيخون ويعاود المشي جنوباً نحو ضاحية البرادو، متوجّهاً إلى محطة أتوتشا للقطارات حيث يقف عند شباك التذاكر، متردّداً، فالوقت قد حان ليغلق خرائط غوغل ويسارع للتوقيع في سجل الانصراف.

كوابيس الصحو

كانت كوابيسه تبدأ عندما يستيقظ، أما أثناء النوم فلا شيء كان يحول بينه وبين السعادة. كان يؤمن على الدوام بعظمة النوم وقدرته على حل مشاكله المستحيلة التي لا يمكن لغير القدر ـ بوفاة أحدهم في الغالب ـ أن يساعده على التخلّص منها. لطالما أبدى إعجابه بمهارة النوم في القبض بيسراه على الساقين الخلفيتين للوقت ودقّ عنقه باليد اليمنى كما لو كان أرنباً، دون أن تعتريه أي شفقة لتلك العينين البنيتين وهما تنظران إليه فيما يشبه التوسّل وعدم التصديق. كان يمرّر أيامه التعيسة بنوم جندي فرّ من الجبهة، يتعقّبه العار وتطارده الخيانة وعقوبة القتل. أما الأعياد والأيام المجيدة فقد كان يقضيها في النوم براحة بال الجندي نفسه وقد عبر الحدود مخلّفاً وراءه حقلاً من الجثث والألغام. كان ينام وعندما يصحو يعاود النوم مرة أخرى بعزيمة من يمكنه بقليل من الجهد أن ينام إلى الأبد.

قارئة

كانت تقرأ في الأمس القريب رواية «موبي ديك» لهيرمان ميلفل. وها هي الآن تشرب قهوتها المُرّة في مكتبها الذي يقع في الدور الثالث وتطيل النظر، دون أن تتوجّه نحو النافذة، للبحر الذي لا نهاية له. ثم تقف لتخلع حذائها على عجل وتبلّل قدميها بماء البحر الذي يبعد عنها مسافة ألف كيلومتر.

حياة سريعة

استيقظ في عيد ميلاده الحادي والعشرين، ليجد نفسه قد بلغ الأربعين بشاربٍ عثماني كثّ وامرأة سمراء تتصرّف كما لو كانت زوجته، وترجو منه بلطف أن يراقب طفلهما الذي لا يتوقّف عن اللعب. كان الطفل يشبهه تماماً لدرجة يستحيل معها أن يشكّك في أبوته ـ بل وحتى أمومته أسوةً بفرس البحر- على الرغم من كونه لم يتزوّج أبداً. ثم كان وقت قيلولته الخاص قد حان وعندما استيقظ صار في الستين من عمره يشغل منصب المدير أو نائبه، وتشغلهُ بعض الآلام في الظهر والقدمين. أغمض عينيه خوفاً من أن يفتحهما فيرى عجوزاً في الثمانين، يشعر بالذعر الشديد من أولئك المراهقين الذين جاؤوا للاحتفال بعيد ميلاده.

القروي الأخير

لو حمل شبكة الفراشات على كتفه، وشرع يصطاد بهدوء أعمدة الإنارة. لو حفر في ساعةٍ متأخّرةٍ من الليل حفرةً للطريق في منعطفه الأخير. لو نصب لإشارات المرور عند كل تقاطع مصيدة الفئران. لو سرق المناظير الليلية لأبراج الحراسة والمطارات. لو سكب في غفلةٍ من الكاميرات ورجال الأمن برميلاً من الزيت تحت أقدام ناطحة السحاب. لو فعل كل هذا وأكثر ما كانت القرية لتقبل بالعودة مجدّداً.

يوم سيئ

لا شيء على ما يرام. تيبّست ساقاه كما لو كانت قوائم طاولة، ولمّا كان يقف في طابورٍ طويل بات الأمر مخجلاً للغاية، ناهيك عن كونه مرعباً في المقام الأوّل. لم يعد قادراً على التقدّم قليلاً أو حتى المغادرة. وعندما قام الرجل الذي يقف خلفه بتنبيهه لم يستطِع الاعتذار أو حتى التبرير إذ تحوّلت لغته إلى مجموعة من الأرقام واللوغاريتمات. بدأ الأمر في الصباح عندما همّ بالخروج من البيت وعندما ارتدى ملابسه انطلقتْ يداهُ بطريقةٍ تفتقر إلى الأدب لتخلع بنطاله. تطلّب الأمر ما يزيد عن النصف ساعة وعندما أمسكت يمناه بمقبض الباب، أقفلته يسراه. وفي السيارة أغمضت عيناه لوحدهما ـ ليس بسبب النعاس ـ فأصيب بعمىً مؤقّت كاد يكلفه حياته، فترجّل وراح يمشي حتى فوجئ بأن أقدامه تسلك طريقاً يختلف عن ذاك الذي تسلكه خطواته، ولعل الأسوأ من ذلك هو أن الطريقين لا يقودانه إلى وجهته التي يقصدها في الأساس. وها هو الآن لا يزال واقفاً في الطابور حيث ينظر إليه الناس ـ على غير عادتهم ـ بشفقةٍ حقيقية.

آنسات هوبـر

لو كان شاباً طويلاً في مقتبل الثلاثين، لو كان وجهه مستطيلاً بعض الشيء ويميل قليلاً إلى التعاسة واليأس. لو كان عنقه ثخيناً على الأقل كما اعتاد المجنون موديلياني أن يرسم شخوصه، لربما نجح ذلك المراهق الذي يتأمّلها منذ أكثر من عشر دقائق في إثارة اهتمامها. من الممكن أيضاً أن تدعوه للجلوس على الكرسي المقابل الذي تعمّد الأمريكي إدوار هوبر أن يرسمه فارغاً.

بعد أربعة أيام من انتهاء الحرب

عندما استيقظ وجد أمامه شخصاً لا يعرفه، أغمض عينيه وعاود النظر فوجد شخصاً آخر لا يعرفه أيضاً يقف بجانب الأول. حدّق طويلاً فازدحمت مجموعة من الغرباء على مد بصره. أدار ظهره من الحيرة والخوف فوجد رجالاً لا يعرفهم ينظرون بريبةٍ إلى رجالٍ لا يعرفونهم يتأمّلون بدورهم المزيد من الغرباء.. ولا تنقطع هذه السلسلة من النظرات المندهشة إلا عند الرجل الذي يقف أمام الجدار الأخضر لألبوم المفقودين.

أبـوّة

كان يحتفظ بصورة قديمة وغير ملوّنة لابنه البكر والوحيد ـ ترافقه أينما ذهب ـ تم التقاطها قبل عشر سنوات بواسطة السونار.

ساعة الحائط

كان يعترض على ساعة الحائط وطريقتها البليدة في حساب الوقت، فالساعات لا تمضي بسرعةٍ واحدة كعربات القطار، بل يدور بعضها كعجلة الروليت، وبعضها الآخر يبدو ثابتاً على الرغم من كونه يدور في الواقع كما هو الحال بالنسبة للكرة الأرضية. كان يعترض أيضاً على تساوي الحصص الزمنية، فالساعة من عمر الفتى الذي لن يتجاوز العشرين لوفاته بالإيدز أو بحادثٍ مروري، تبدو أقصر عملياً من دقيقة واحدة تمضي ببطء شديد على أحد الطاعنين في السن أمام نوافذ مأوى العجزة. كان ينهي حديثه أو نظريته العلمية كما يدعوها بضرورة استبدال المرايا التي تقيس الزمن خارجياً بالساعات، أما من الداخل فالأرق يشير إلى الوقت بدقة متناهية.

جمجمة أودري هيبورن

أنت على حق. السرير الذي تنام عليه وحيداً يتحيّن غفلتك حتى يرتطم بأصبع قدمك الصغير مرّةً أخرى. السرير الذي يفيض نصفه عن الحاجة على حد تعبير الإسباني كاميلو ثيلا يريد أن تثق به، ولو مرّة واحدة، وتمنحه دوراً أكثر أهمية ليثبت جدارته بدور الزنبرك. السرير الذي يلعن ساقيه المقعدتين لعجزها عن السفر إلى سويسرا، ونبش قبر أودري هيبورن حتى يتمكّن من تهشيم ما تبقّى من جمجمتها الملعونة التي تحتل صورها كل جدران غرفتك.

الحالم

تقع أحداث حياته الحقيقية في الحلم، أما اليقظة فأحداثها الواهية لا تعنيه أبداً. كان يعيش في مدينةٍ أخرى تبعد آلاف الكيلومترات عن مدينته التي لم يغادرها قط. قضى هناك طفولته السعيدة والتقط من مقاعد الدراسة صديقه الأبدي ما لا يجعله متذمّراً من الوحدة وسوء الحظ في أوقات الصحو الخادعة فيبددها في الغالب على السرير عوضاً عن الذهاب إلى المكتب. وحالما يُطرد من العمل، كما هو متوقع، لن يكترث على الإطلاق، لم يكن في الأساس بحاجةٍ إلى أي وظيفة طالما يحتفظ بمنصبٍ هام هناك. حتى عندما ينتقل إليه الإيدز لن يشعر بالخوف أبداً، ما دام في الحلم، يخلص لزوجته التي عندما يداهمه الأرق ويتأخّر في النوم تقف هناك قلقةً في انتظاره.

انفصال

عندما تظاهر أحدهما أو كلاهما بالنوم لأول مرة ـ لأسبابٍ عظيمة أو تافهة ـ كان الشرخ الصغير جداً قد شقّ طريقه تحت الملاءات البيض، وعلى الرغم من الصلح الذي قاما بإعداده مع الإفطار إلا أنه بقيَ على الفراش منذ تلك الليلة، لا يزيد طوله وعرضه أيضاً عن ملليمتر واحد، قد يبدو تافهاً لولا أن وحدة القياس تلك من شأنها أن تباعد بين حرفين متشابكين في كلمةٍ ما لتلحقهما بكلمتين متجاورتين ومختلفتين تماماً. لقد انفصلا إلى الأبد كما يحدث لفتات الخبز الذي ما عاد بمقدوره أن يعود رغيفاً دائرياً.

تنويعات قدرية

يمكن تلخيص الحالة التي يعيشها أو المأساة، كما اعتاد أن يدعوها، في وعيه الحاد وعجزه التام عن النسيان. هو يتذكّر كل شيء بالتفصيل دونما جهدٍ أو رغبة. كل ما حدث في حياته حتى الآن، كل ما حدث يبدو ماثلاً أمامه طوال اليوم وهذا ما يجعله يراها حياةً بائسة على الرغم من خلوها من بركان فيزوف والحرب الأهلية الإسبانية. لا شيء أكثر من وفاة صديق طفولته الوحيد والشلل الأبدي الذي تمكن من تحنيط جدّته مؤخّراً. وكما تعلم، لا تخفى مثل هذه التنويعات القدرية على كل رب أسرة وقد حدثت منذ زمنٍ بعيد للبعض وستحدث قريباً للبعض الآخر. هو يتذكّر كل شيء حتى عندما يستغرق في الشرب أو النوم. يتذكّر كل شيء حدث منذ ولادته التي يستطيع وصفها بدقة تثير الهلع، يد القابلة الضخمة، وجه والدته المرهق يعلوه الكثير من العرق، ابتهالات الجدة واحتفال والده بإطلاق الرصاص ويعتقد أن بمقدوره الخلاص لو حالفه الحظ وتعرّض لغيبوبة تسكب الحليب على دماغه الذي يزن عشرة آلاف طنٍ من الحديد مثل برج ايفل.

خوف

لم يشأ أن يلكِم صورته عندما سدّد إلى المرآة لكمةً خاطفة، ظنّاً منه بأنها ستقوده إلى الجنون في الأيام المقبلة، على الرغم من علمه بأنها مجرّد زجاجة مريضة بالزهايمر. كان ينظر إلى خزانته وأدراج مكتبه كما ينظر المرء إلى توابيت متعدّدة المقاسات، متسائلاً بسخط عن الطريقة التي جعلت أحصنة طروادة تتسلّل إلى غرفة نومه. أطفأ المصباح الكهربائي الذي يتدلّى مثل مشنقة فالضوء بات يميل إلى التشويش أكثر من الوضوح. وفكّر أنه بحاجة إلى المزيد من الستائر ليعصب عيون النوافذ التي علّمته، في آنٍ واحد، تربية الأمل والرغبة في الانتحار. وعندما جفّت آخر قطرة من النور، كانت عيونه تلتمع تحت السرير مثل قطة.

العيش في القطارات

يحب القطارات ويفكّر بها دائماً كخيولٍ شريدة، وعندما يرى القضبان لا يرى آنا كارنينا تلقي بنفسها بقدر ما يرى حدوة القطار اللانهائية. وقبل أن يركبه يمسح بكفّهِ على خاصرة القطار ـ لطالما كان اللمس أبلغ اللغات ـ فيحمحم بكل امتنان. يجلس بجوار النافذة ليتأمّل الزمن وهو يفترس الحصى واللون الأخضر والزمن نفسه. تتصاعد من أذنيه أعمدة الدخان فيدرك أن القطار يفكّر في الماضي البعيد كما يفعل هو الآن. يعرف جيداً رائحة الندم، ليس لما اقترف من أخطاء فحسب بل حتى تلك التي أقعده الخوف أو الوقار عن ارتكابها. يدخّن أسوةً بالقطار، يدخّن كي يتذكّر ويدخّن كي ينسى ولو أتلف رئتيه، ويتمنّى لو كان بمقدوره أن يعيش هنا إلى الأبد بينما يمضي القطار إلى الأمام أو الخلف ـ لا فرق عنده ـ وعندما يصل محطته الأخيرة وينزل الركّاب، يقف في الخارج ويفكّر لو أنه يكوّر شفتيه ويصفر قليلاً لربما يقفز السياج ويهربان معاً.

عربـة تسوّق

يبيعونه الحقائب فارغةً من السفر، والشبابيك مفتوحةً بلا ابنة الجيران، والكمان مجوّفاً من عروض الباليه، والشموع مضيئةً بلا أعياد الميلاد، والكعك خالياً من البهجة، والبنادق محشوّةً بلا أمجاد، واللون الأحمر منقوصاً مارلين مونرو.

أعطال زمنية

ما أن تدق الساعة السابعة مساء حتى يغِط والدي في نومه الخالي من الأحلام والكوابيس. يخرج الجميع من غرفته لانتهاء الوقت المخصّص لزيارة مرضى العناية المركزة. في الثالثة فجراً يهاتفنا الطبيب مقدّماً تعازيه الحارّة وأسفه الشديد. يهيل أخي الصغير التراب برقة على وجهه الذي يقول شيئاً لا نفهمه. في الغد يهاتفنا الطبيب مرة أخرى ليبدي تعازيه الحارة ونقوم بدفنه أنا وأخي مرّة أخرى كما فعلنا بالأمس وما قبله وكما كنّا نفعل طوال العشر سنوات الماضية.

كانت أحلامه تتحقّق بمجرد التفكير بها

أومأت خزانته ثم فتحت له ذراعيها مثل مصعد، ليقفز قميصه الأزرق ذو الياقة الفرنسية فوق كتفيه، وتراكضت فردتا حذائه الأسود نحو قدميه كما لو كانتا جروين من فصيلة اليوركي، وانحنى الباب كما يفعل كبير الخدم في قصر باكنقهام وهو يناوله قبعةً شبيهة بتلك التي تظهر دائماً في رسومات رينيه ماغريت. ثم سار به الطريق دون أن يخطو خطوةً واحدة حتى توقّف عند إحدى واجهات المتاجر حيث تقف المرأة التي لطالما شاهدها في مناماته وحيدةً، في إحدى قاعات الرقص، وكلما دنا منها أيقظه المنبه لولا أنه لم يكن يحلم هذه المرة. كانت أسطوانة الدانوب الأزرق تدور في رأسه ثم أخذت موسيقاها لحسن الطالع تصدح في أنحاء المتجر كما لو أنها تذكّره بدروس الرقص. ردّد في سريرته أن الاستماع الجيّد لذلك الفالس يكفيه ليصبح راقصاً ماهراً. كانت فتاة أحلامه تقف حائرةً أمام فساتين السهرة على بعد أمتارٍ فقط بينما كان حظّه السعيد لا يزال في أوجه عندما حمله أحد العمال لمجاورتها في منتصف المتجر حيث خُصّصت تلك البقعة للمانيكانات.

رُزنامة من يوم واحد

كان الحفاظ على الروتين موهبته الوحيدة، وقد قام بصقلها بغريزة آلية لا تتسامح أبداً مع الشكوى أو الشعور بالسأم. كانت قهوته السوداء هي القهوة التركية واللاتيه والاسبرسو مع اختلافات طفيفة في المكوّنات وطرق التحضير. كانت ألف ليلة وليلة هي الإلياذة والشاهنامة والكوميديا الإلهية بشكل أو بآخر. كان بحر مدينته هو البحر الأحمر والميت والكاريبي مع فروقات بسيطة في درجات العمق والملوحة. كان الصيف والشتاء فصلاً واحداً باستثناء الحاجة أو عدم الحاجة إلى المعاطف الثقيلة. كان الصداع هو الانفلونزا وقرحة المعدة والروماتيزم مع آلام وطرق علاج متغايرة. كانت حياته يوماً طويلاً بلا مفاجآت، وكان هذا سر طمأنينته عندما يستيقظ في السادسة صباحاً بلا منبه كما يستيقظ أحدهم من قيلولة.

البكر

وُلِد بلا طفولة أباً صغيراً، وفي سنواته الأولى صار بطول الخزانة. يمكنك أن تدس بداخله الأشياء أو ترميها على سطح أكتافه الخشبية. ثم صار بمستوى إشارات المرور وأعمدة الإنارة - يتناوب بينهما حسب الحاجة ـ ولم يبلغ العاشرة بعد. وعندما صار بطول الرافعة انتُدِب إلى العاصمة لوفرة المشاريع وأعمال البناء، ولم يتوقّف عن النمو حتى عندما تجاوز الحادية والعشرين. يقولون إنه بلغ السماء، ويقول إخوته إن والدهم سيهبه هناك طفولةً أخرى.

حروب لا إرادية

عندما استيقظ وجد نفسه في الصفحة العاشرة للرواية التي أتم قراءتها في الأمس. كانت الحرب التي لن ينجو منها أحد على وشك أن تقع بعد صفحاتٍ قليلة. رأى نفسه يلتحق، دونما رغبةٍ أو خيار، بطلائع الجيوش الصليبية إبّان القرن الحادي عشر. كانوا يزحفون نحو بيت المقدس وبمجرّد اندلاع الحرب سيكون مضطراً لمقاتلة أجداده ما لم يهرع لمساعدته صديقه الذي استعار منه الكتاب.

ميعاد

كانت ميعاد تعلن عن أهلية كلية الفنون بمجرد أن تدخل من بوابتها الشمالية. يقاوم المبنى شعوره بالخمول، ويتأكّد من تزرير نوافذه. تبدو ميعاد للوهلة الأولى ـ وهذا المصطلح لا يأتي إلا تبريراً لندم، أو تمهيداً لخطأ فات أوان تصحيحه ـ مثل كمانٍ في حاجةٍ إلى كتفٍ ليستريح، ولكنها بمجرّد أن تقترب تبدو شبيهةً بمهرةٍ مذهّبة من ديزني يمكنها العدو بلا توقّفٍ في الهواء. لا تلفت نظرها الأبخرة التي تتصاعد من رأسك وإن كنت بصلابة سلسلة جبال الأنديز، فهي مشغولة على الدوام باللعب مع فراشاتها، وإذا كان التواضع يزيد من جاذبية الرجل فالعكس تماماً بالنسبة للمرأة. تمشي بساقين مدهونتين بالزبدة والمربى وإن حاول الجينز نفيَ ذلك. لا خلخال، ولكن بالرغم من ذلك تتساقط الأغاني من كاحلها مهما اجتهدت لتمنعها مثلما يفشل المرء في لملمة فتات الكوروسان. قرطان من اللؤلؤ تأتمنهما على أسرارها وأغانيها المفضّلة. كانت تجلس يسار القاعة بينما يقف دكتور المسرح الإغريقي في المنتصف ونحن نتوجّه بأنظارنا وأكبادنا نحوها وهي ترد علينا أحياناً بعد مضي نصف ساعة بابتسامة قصيرة

مثل هايكو نحمله إلى البيت ونضعه في المكتبة. في نهاية الفصل الدراسي، جلست أمامي في الاختبار النهائي وكانت مؤخّرة عنقها تبعد عني مسافة عرق نعناع أو لزمة موسيقية على مقام البيات ولم تكن هناك أي لافتة على الطاولة أو حتى في الهواء تحذّر من مغبّة اللمس لذا عندما فعلتها سبابتي اليمنى لجزءٍ من الثانية ارتعشت ميعاد أو هكذا تهيّأ لي ثم عادت لورقة الامتحان. زرت اللوفر بعد سنوات، كانت الصفوف تزدحم لتتأمّل منحوتة فينوس دي ميللو بينما كنت الوحيد الذي يقف خلفها موجّهاً سبّابتي اليمنى نحو عنقها.

حياة فائضة عن الحاجة

يقضي وقته كاملاً في تزجية الوقت، يهدر صباحه دون أسى، كما يفعل النهر بنفسه حين يرهقه الضجر. يتمزّق بلا اكتراث ويتحوّل إلى فسيفساءات زرقاء تبتلعها حيتان المحيط. وما إن ينحسر النهار ويتقدّم الليل ـ تلك الملايين من الهالات السود ـ حتى يلقيه بعيداً مثل نرد لا يعنيه أن يستلقي على بطنه أو قفاه، فالرقم الذي سيظهر يتساوى عنده مع أي رقم آخر، أما الربح والخسارة ـ وقد يبدو هذا صادماً ـ فإنهما لا يعنيان شيئاً للمقامر بقدر ما يعنيه اللعب طيلة الليل.

ثقوب

قال الإسكافي:

«لا بد أيضاً من رتق الجورب، والقدمين، والخطى، والطريق».

عذابات الجنرال

لم يكن ذاك عرق الجنرال ولم تكن تلك رائحة غليونه، بل كانت عشرات الجيف المتفسّخة التي يطعمها النسر الذي حطّ على رتبته العسكرية، وحتى لا يطير النسر إلى رتبةٍ أخرى على الجنرال أن يتدبّر بنفسه أمر تلك الجيف. أما النسر فيدرك جيداً نقطة ضعف الجنرال، وعندما يشعر بالملل يروّح عن نفسه وهو يتصنّع قرقرة الجوع لا لشيء ولكن ليرى شارب الجنرال الكث وهو ينتفض مثل فرو كلبٍ مبلّل، ويلعن في سره شهيته المفتوحة. في ليالي الشتاء الطويلة يداهمه الأرق فيخفق بجناحيه ليوقظ الجنرال الذي يتمنّى ساعتها لو أنه يستطيع أن ينهي الموضوع كالعادة برصاصةٍ بين العينين. هَرِم الجنرال وهو يخشى النسر خشيته قيام انقلابٍ عسكري لن يحدث ـ على الأقل في حياته ـ ولكنه بلغ سن التقاعد وبات عليه أن يسلم النسر إلى عصفورٍ شاب ومطيع يطمح للعثور على قفصه الخاص.

هندسة الخلاص

يحز الدائرة بمشرطه، ثم ينفضها أكثر من مرة كما لو كانت قطعةً من السجّاد العجمي، لتعود خطاً مستقيماً يمكنه أن يصل بينه وبين أحلامه التي تقطن في الطابق الخمسين لناطحة سحابٍ لا مرئية. يمكنه أيضاً أن يطوّع بطريقةٍ رياضية تلك الدائرة التي صارت الآن خطّاً مستقيماً بغرزها في الأرض مثل زانةٍ يقفز بها على كآبته التي تظهر بشكلٍ متكرّر في طريقه إلى العمل أو غرفة النوم. بوسعه، عندما يقطع ذلك الخط مرّةً أخرى، أن يحظى بقضيبين لسكة حديد ويتبقّى فقط أن يعبر القطار ليستقلّه أو يستلقي أمامه، أو يعيد الدائرة كما كانت ويقفز بداخلها كما لو أنها هاوية.

نزلة بـرد

لم يعد راغباً في التدخين بعد أن فقد حاسة الشم على نحوٍ مفاجئ، وتشابه تبغ سجائره المارلبورو مع كربون الفحم النباتي. لم يعد راغباً في الأكل عندما صار مذاق الباستا لا يختلف كثيراً عن حبيبات المطاط. لم يعد راغباً في العيش مع رفيقته التي ما عادت لها رائحة الدرّاق وباتت أشبه بشجرٍ صناعي يدعوه إلى النوم، فتتيبّس أعضاؤه ويتحوّل إلى إناءٍ خزفي.

حدبات لا مرئية

عندما يخلو بنفسه تتوقّف حدبته عن التخفّي، وتظهر كشوالٍ من الدقيق. وفي الليل، تظهر حدبته الثانية فيغدو شبيهاً بجملٍ آسيوي. ويعود ظهرهُ مستقيماً، بمجرّد أن يخرج إلى الناس، مثل خرسانةٍ مسلّحة أو جدارٍ يمكنك أن تخُط عليه شعاراً وطنياً أو شتيمة.

معجزات منزلية

يضع الكمّادات على رزمة من المسامير فتنبجس من الشارع قطارات وسكّة حديد. يؤوي بعض الحجارة فتنتصب في القبو معابد البارثينون والأكروبول الإغريقية. يعتني بكومةٍ من القش فتضج الشرفة بالحياة البرية لسهول السافانا. يلملم شظايا الزجاج فتعدو على الحائط قطعانٌ من المرايا والنوافذ. يرعى نشارة الخشب فتنمو في الأصيص غابات البلوط والصنوبر. يحتفي بقطرات الندى فتنسلّ من فرجة الباب مدينة البندقية. يسقي ألبوم الصور فتنهمر على يديه دموع والده لأول مرة.

مايسترو

كانت يمين المايسترو تنظّم حركة الملاحة الجوية للطائرات المدنية والورقية، للأعاصير ونسائم الربيع، للأقمار الصناعية والريش المتساقط، للنسور في أعالي الجبال والفراشات في الحقول، للمناطيد الملوّنة وبالونات الأطفال، بينما كانت يسراه تقود الأوركسترا بحذرِ أُمٍّ تقطع بصغارها الشارع.

لا مبالاة

يعيش بوجه الحائط، بنفس الطول والسُمك والعبوس، بلا وجهةٍ يقصدها، ولا مسقط رأسٍ يعود إليه. يدير ظهره للريح ولا يتزحزح أبداً تعاطفاً مع هاربٍ أو راغبٍ في الانتحار. لا تضحكه النكات مهما بلغت بذاءتها ولا تستهويه كرة القدم التي يركلها بعيداً عنه كل مرة. لا يتنازل عن وقفته العسكرية من أجل نزهةٍ على الساحل أو لمغازلة فتاة جميلة في السوق. لا شيء يعيد ابتسامته حتى ألوان آندي وارهول فمن وجهة نظره الخاصة ليس هناك ما يدعو للضحك في هذه الدنيا كما ليس هناك ما يدعو للبكاء.

قلق

خرجتْ لنزهة صباحية فلم تجِد الطريق في الخارج. كانت علامات المرور تشير إلى طريقٍ فرعي لم يعد موجوداً هو الآخر. كان عمود الإنارة واقفاً مثل خيال مآتة في مستودع لا تعنيه الغربان ولا أكواز الذرة. تمنّتْ لو أن لحذائها بداهة كلبٍ بوليسي فيقودها إلى الطريق أو الفاعل. استدارت فلم تجد البيت الذي كان هنا منذ دقائق وعلى مدار عقدين كاملين من الإصرار على الأخطاء الهندسية. ربما لو بقيتْ النافذة معلّقة في الهواء لبدا الأمر شبيهاً بإحدى ألاعيب رينيه ماغريت. ولكن لا شيء هنا من شأنه ألا يجعل الساق الخشبية تتآكل من الهلع.

تيكيلا

كان يفضّل التيكيلا المكسيكية على بقية المشروبات الكحولية وغير الكحولية. ليس لثمنها المعقول، الذي لا يحول بينه وبينها في أي وقت، بل لأنها تعفيه من مشقة النسيان التدريجي. تدوم حياته التعيسة التي لا تُطاق حتى الكأس الرابع وأحياناً الخامس، ثم ينسحب الواقع وتختفي حياته الاجتماعية، وخيانات الأصدقاء، وأقساط البنك، وتحذيرات الطبيب حتى يغدو شخصاً آخر لبضع ساعات.

ثلاثة أهداف نظيفة

في عيد ميلاده الأربعين تملّكه القنوط والسخط، لم تكن هذه الحياة تخصّه، لم يحلم بها، ولم يخطّط لها ولكن، يا للتعاسة هو ـ ولا أحد غيره ـ من كان عليه أن يعيشها بمفرده. ألقى باللوم بعد سلسلةٍ من اللعنات والشتائم على الحظ والزمن وهوسه بالانطلاق إلى الأمام دون مكابح. وإذا كان معدّل عمر الإنسان الطبيعي ـ مع تحفّظه على الكلمة الأخيرة ـ هو ستين عاماً فقد انقضى حتى الآن ثلثا عمره. وعندما أجرى حساباته الكروية وجد نفسه في الدقيقة الستين لمباراة كرة قدم ـ على افتراض أن الحياة تمتد لتسعين دقيقة بلا استراحة بين الشوطين ـ وبما أنه قد أخفق في حياته الأسرية والعاطفية والعملية أيضاً فمن الممكن القول بأن الساعة الكبيرة للملعب تشير إلى تخلّفه بثلاثة أهداف. لم يتبقَّ فعلياً سوى نصف ساعة أو عشرين سنة، ومن الصعب جداً وإن لم يكن مستحيلاً الفوز أو حتى معادلة النتيجة ما لم يجازف بكل شيء. من يدري، ربما يتعاطف الحظ فيحتسب ضربة جزاء من العدم أو على الأقل يستعجل إطلاق صافرة النهاية.

رصاص متجوّل

لا ترمِ الهواء بالرصاص، قد تقتل صلاةً في طريقها، وتنثر على الأرض ابتهالاتها الدامية وليمةً للنمل والديدان. قد تمزّق مناماتٍ هانئة فلا يملك أصحابها غير نسخٍ ليلية من بورتريهات فرانسيس بيكون، أو تثقب تنهيدةً في منطادها فتهوي لقاع الروح وترتطم هناك كلّما حاولت الطيران. قد تردي قبلةً تسافر إلى قارةٍ أخرى، فتعود لصاحبها مثل رسالةٍ كان قد حملها في الأمس إلى مكتب البريد.

نهاية العالم

جفّ المحيط الهادي دون حدوث اضطرابات جيولوجية، وابتلع التنين الصيني دول الشرق الأقصى دون نشوب حرب. وغرقت القارة الأسترالية بلا طوفان، واختفت الأمريكتان الشمالية والجنوبية بلا قنابل نووية كما لو أنها تتعمّد تكذيب كولومبس. واستعمرت أفريقيا ـ بلا أدنى رغبةٍ في الانتقام ـ قارة أوروبا. وبقيَ القطب الشمالي على حاله والقطب الجنوبي كذلك فلم يكونا في الخارطة التي كنت أطويها من الضجر.

مشادة كلامية

بدأ الأول بتحية الصباح وشرع فوراً بانتقاد الطقس ثم تحوّل الحوار دون سبب إلى مشادة كلامية، وسرعان ما انتهت بشتم الأمهات، وافترقا دون ضغينة... هو والجدار.

مفاتيح الأب

منذ قرابة العام وأبي يُضيع مفتاحه الخاص بالمنزل على الرغم من تمتعه بذاكرة جيّدة، فهو لم يبلغ الستين بعد. يطرق الباب مرةً واحدة ثم ينصرف بسرعة فلا نجده بالخارج. من المؤكّد أنه لا يزال غاضباً كما تقول والدتي وهي تبكي بحرارة، وتوصيني كعادتها أن أضع نسخة أخرى من المفتاح بجوار قبره في الزيارة القادمة.

اضطرابات عاطفية

تمكّنت الصدفة أخيراً من تدبير موعدٍ لم يكن بوسعهما التخلّف عنه. دفعهما الارتباك للجلوس حول طاولةٍ واحدة. تبادلا التحية وبعض الأسئلة التي يطرحها الجميع بدافع اللياقة وليس الاهتمام. كانت يداه تتحرّقان لتطبقا على عنقها، الذي اعتاد أن يزور تيفاني من أجله باستمرار، أو لتصفع يمناه خدها الذي كان يتحمّل مسؤولية تأخيره الدائم عن العمل. كانت في المقابل تبدو أكثر اتزاناً وقدرةً على الصفح والنسيان، ولم تكن تفكّر بأكثر من سكب قهوتها على قميصه ريثما ينتهي الحوار الذي يدور بينهما تحت الطاولة.

لحياةٍ أخرى

لا يمكنه السفر بعيداً، لكنه يقتني الكثير من الخرائط. لا يرتبط بموعدٍ غرامي، لكنه يعود متأخّراً إلى البيت. لا يخاف من فقدان ذاكرته، لكنه يحتفظ بكرات النفتالين طي ماضيه. لا ينام، لكنه يغمض عينيه لثماني ساعاتٍ متواصلة. لا يكتب الشعر، لكنه يقتصد في ألفاظه كما لو كانت هايكو. لا يتمدّد مثل جسر، لكن يعبره الآخرون. لا ينتسب للبحر، لكنه يتردّد جيئة وذهاباً مثل موجة. لا ينتظر شيئاً، ولكن يشعر بأن قدره الوقوف مترقّباً مثل شرفة.

ثأر

في ساعات الفجر الأولى يذرُّ الظنون على عينيه، يدسُّ البارود تحت أظافره، ويحشو فمه بالرصاص. ثم ينطلق إلى الجبل مترقّباً بحذر. لا أحد يغامر بالعبور هناك حتى الهواء. ولكن ما يميّز القنّاص في نهاية الأمر هي مهارة الصبر لا دقّة التصويب. يتذكّر أذنه التي قُطعت في الأمس، فيتضاعف حنقه وتصميمه على أن يحسم أمره هذه المرة على طريقة همينغواي وليس فان كوخ.

كحول

لم يكن ثملاً تماماً وهو يطلب كأساً من الفودكا وكأساً أخرى لمنادمة الكأس الأولى. يسند رأسه المصاب بالزهايمر للمرة الثالثة، على منضدة البار كما لو كان حقيبة دبلوماسية. يسأل الترومبيت المعلّق على حائط بعيد بنظرة من عينيه المغمضتين أن يرتجل شيئاً من الجاز لدماغه الذي سيغدو، عمّا قريب، طبقاً من باستا ريقاتوني أو على أقل تقدير ليعزف بمناسبة الذكرى العشرين لوفاة الأسطورة بيكر. لم يكن ثملاً تماماً ولكن رأسه الذي يدور مثل كرة بولينق معصوبة العينين تصيب هدفها بدقة هائلة ـ دون أن تخفق مرّة واحدة ـ في ضرب ساقيه الخشبيتين لتسقطه أرضاً من جديد.

حياة على الرف

يحمل أيامه السبعة ويعلقها في الخزانة، وعند الضرورة القصوى يُخرج من جيوبها بعض الساعات وينفقها بحذرٍ واقتصاد، ولا يتنازل للنادل أو لأحد المتسوّلين عمّا يتبقّى منها وإن كانت ثوانٍ معدودة. قد يصرف من سويعات الظهيرة ما يصرفه الغير في يوم أو يومين أو حتى ثلاثة. وعندما ينتهي الأسبوع يطويه مثل قميصٍ جديد بجانب العطل المغلفة وأوقات الفراغ البيضاء في حقيبته السامسونايت. ولا يمل من عدّها مرّةً تلو الأخرى بسعادة يكاد لا يعرف غيرها، ثم يغلقها بحذر دون أن ينسى بين حينٍ وآخر تغيير الرقم السري للقفل، ويذهب للنوم في الليلة التي ادخرها مطلع الشهر الماضي فالوضع الاقتصادي المتدهور للعالم أجمع يحتّم عليه ذلك.

في يوم الأب العالمي

هاتفَ والده بعد ألف يومٍ من القطيعة، كان هاتفه مغلقاً كما لو كان حياً.

أصوات

أيقظهُ صفير القطارات خلف النافذة التي تطل من الأزل على شجرة دلب، لا على سكة حديد. أفزعهُ جداً أن يرى تلك الطيور الوديعة، التي لا تمانع العيش بسعادةٍ في قفص، تطلق ذلك الصفير الحانق وسحب الدخان من فتحات أنوفها حتى كاد يختنق. عاد مدهوشاً إلى سريره، كان يتأرجح مثل زورقٍ شراعي وأخذ يستدرجه دوار البحر، فأيقظهُ سرب النمل الذي اعتاد أن يسلك بموافقته طريقاً سريعاً وآمناً أسفل السرير. لقد اختفى الدبيب وباتت كل خطوةٍ تخطوها النملة الواحدة بأرجلها الست أشبه بريحٍ تعصف بالموج حتى يصطخب البحر كما هو الحال دائماً في رسومات تيرنر. وبعد زمنٍ أيقظتهُ عقارب الساعة بطنينها الحاد الذي يكثر بالعادة في المستشفيات ليعلن رسمياً عن توقّف نبضات القلب. تعرّق حتى تبلّلت منامته وأيقظه هذه المرة، لحسن الحظ، رنين المنبه وقد بدا متطابقاً تماماً مع عويل سيارة إسعاف تصل قبل فوات الأوان. كان سعيداً وسيبقى كذلك لدقيقةٍ أخرى، قبل أن تشهد نافذته حادثة التصادم المؤسفة لبعض القطارات.

التفاتة واحدة فقط

لا يبعد المقهى عنهما أكثر من مئة متر، ولا يغلق أبوابه لحسن الحظ قبل العاشرة مساءً، ولا حاجة لحجوزاتٍ مبكّرة فالطاولة المحاذية للنافذة دائماً ما تكون شاغرة. وفي كل ساعة لا بد أن تنبعث من المذياع أغنية واحدة على الأقل من أغاني أزنافور، والطاولة المستديرة مثل قرص بروزاك أو نصف مؤخّرة تكفي لعناق الأقدام ـ ليس الآن، ربما ابتداءً من الموعد الثالث ـ والإضاءة خافتة كما لو كانت صالة سينما، ونظرية الاحتمالات ترجّح حدوث لقائهما بنسبةٍ معقولة. ماضيهما يخلو من قصص حبٍ مدمّرة، وجسداهما يجهلان حوادث ارتطام القطارات، ولم يجرّبا الغرق مرةً تلو الأخرى كما تفعل المرساة، والصدف تتعمّد أن تجمعهما في المقهى ذاته حيث يتخيّلان قصص الحب ـ هي بمساعدة الأغاني وهو بمعونة الروايات ـ ثم يغمضان عينيهما ويتنهّدان وقد أعطى كل منهما ظهره للآخر دون أن يتبادلا كلمة حبٍ واحدة.

شيخوخة

يمشي فيبدو كما لو كان واقفاً، تسبقه الشوارع والأرصفة، وتنحني أعمدة الإنارة في طريقها تحت إبطه، وتكاد تلامس كتفيه المباني الضخمة وهي تعبر بجانبه بسرعةٍ شديدة كقطارٍ عملاق. يمشي فتطمرهُ نسائم الربيع بالثلوج، وحين يتوقّف قليلاً لينفضها عن جسده يبدو شبيهاً بحوض أسماك مهمل، تعيش بداخله بيوض البقّ والجداجد. يمشي وعندما لا يستطيع، يجلس ويتشبّث بذراعَي الكرسي فيهوي لأيامٍ وأحياناً لشهور في البئر الذي لا نهاية له، حتى يسقط على الجانب الآخر من الكرة الأرضية.

غابات حديثة

تدافع نحو السكان قطيعٌ بري من ناطحات السحاب، ينخسه الجوع والظمأ والرغبة في القتل. وحلق سربٌ من المصاعد المنزلية الجارحة في رحلة صيدٍ جادة لأولئك الكسالى الذين اعتادوا ركوبها في السابق. وزحفت الحاويات المعدنية السامة خلف من استطاعوا الهرب والنجاة حتى الآن. كانت المدينة الذكية قد فقدت عقلها على ما يبدو وبات من المستحيل العيش فيها بأمانٍ لغير الروبوتات.

خاطر سوريالي

أزاحت شاشة التلفاز، وعلّقت إحدى لوحاتها السوريالية على الجدار الذي بات أعرض من السابق، ثم مددت الأريكة على يمين النافذة وخطر لها أثناء ذلك أنه من الممكن أن تعيد ترتيب جسدها كما تفعل الآن بغرفتها. ربما تستبدل حلمَتَيها بالأذنين، ستكون في مأمن من سماع الأكاذيب والهراء، وقد تسكب على من يتحدّث عنهما بسوء قليلاً من الحليب. سيكون لصدرها فيونكة حقيقية من الأذنين. تودّ أيضاً أن تضع فمها الكبير مكان العينين ـ كما لو كان منظاراً ليلياً ـ بحيث يمكنها أن ترى الطريق حتى نهايته قبل أن تخطو خطوة واحدة. ستبقي على مؤخّرتها كما هي فمن موقعها الحالي يمكنها أن تفعل الكثير من الأشياء الجيّدة. وتثأر من قلبها وعقلها عندما تستبدل قدميها بهما وينالا أخيراً عقابهما الشنيع على ماضيهما الحافل بالحماقات التي خطّطا لها بحسن نية.

هذيان

عندما يصاب بالحمّى ويغلي رأسه دون بدنه يتفوّه بجملٍ رزينة أشبه ما تكون بالحكم والأمثال، وما إن تغادره الانفلونزا حتى يعود لترديد السخافات. كان المرض إذن فرصته المُثلى والوحيدة لكتابة أولى قصصه لذا حينما هطل المطر ركض إلى الخارج في الوقت الذي كان فيه الجميع يجري إلى الداخل. وحالفه الحظ حين طرحته أرضاً نزلة برد لم يفِق منها إلا بعد أيام كانت كافية لينجز قصته التي تدور أحداثها في سانتو دومينغو عاصمة الدومينكان التي لم يسمع بها يوماً. لم يتوقّف الأمر عند هذا الحد بل بدت شخصياته دومنيكانية أيضاً ـ كما لو أن كاتبها جونو دياث وليس هو ـ والأهم أنها قصة بديعة نشرتها الصحف وحازت على إعجاب القرّاء والنقّاد أيضاً. ولكن عندما عاودته الحمّى مرةً أخرى سارع إلى ابتلاع المضادات الحيوية رغبةً منه في التشافي بأسرع وقت حتى يتفرّغ للكتابة كما كان سيفعل بالضبط جونو دياث.

نرد بلا أرقام

وُلِد النرد بلا أرقام، وبلا أدنى رغبةٍ في الربح أو الخسارة. وعندما كبر قليلاً واستقامت مربّعاته الست صار عليه أن يعمل في المراهنات أسوةً بإخوته الكبار. يتذكّر جيّداً أيامه الأولى المريرة، كان قد قاسى الكثير من الآلام الجسدية والنفسية كذلك. لم تؤذِهِ الرضوض بقدر ما آذته الشتائم البذيئة التي ظلّت تتردّد على مسامعه طوال الليل كما لو كان لاعب كرة قدم سيئ. كان البعض يتوسّله ويقبله أحياناً من أجل رقمٍ معين قبل أن يقذفه في الهواء ـ ربما كان هذا هو الجزء المفضّل في وظيفته: أن يقفز مثل جندبٍ سعيد ـ لكن الأمر أكثر تعقيداً مما يظن البعض، فهو في النهاية لا يشبه العملة المعدنية واحتمالاتها البسيطة. وفي ليلةٍ ما همس له أحدهم قائلاً إنه سينهي حياته ما لم يظهر الرقم ثلاثة، ثم ألقاه بسرعة فأثقلت يده المتعرّقة حركة النرد وسقط مظهراً رقماً آخر. في تلك الليلة لم يكن الدم ليذهب من يد النرد مهما اغتسل. وفي اليوم التالي تكرّر الرقم ثلاثة لأكثر من ساعتين حتى جُنّ أحد اللاعبين وابتلع النرد كما لو كان قطعة حلقوم معتقداً بأنه سيتخلّص من هذا النحس إلى الأبد.

السفر خارج هوليوود

يسافر على متن القطار الذي لن يعترضه أحد الخارجين على القانون، ولن يقوم بسرقته بوتش وكاسيدي ولن يفرّا بعد ذلك إلى صحاري بوليفيا. يسافر على متن القطار الذي لن يذهب إلى نيويورك ولن يعثر فيه روبرت دينيرو على ميريل ستريب ولن يقعا في الحب ولن ينفصلا في النهاية عن زوجيهما. يسافر على متن القطار الذي يقوم بعمله على أكمل وجه ولا يميل إلى الدراما.

ضيف

يقضي الحائط جلّ وقته في التقصّي عن هوية الشاب في الصورة التي علّقوها في الأمس على الحائط المقابل. لا يبدو شبيهاً بأحد أفراد المنزل ـ هكذا تتهامس الجدران ـ إذ لم تشاهد أحداً يتوقّف لتحيته أو حتى للتحديق به، فكأنه هنا منذ زمنٍ طويل أو كأن لا وجود له على الإطلاق. كم يبدو وحيداً، لا أحد غير الغبار يشعر بذلك كلّما قام بزيارته مختلساً فرصة انشغال الخادمة بتحميم موتى آخرين على الحيطان المتبقّية.

احتياطات أمنية

دأب على الشك حتى صارت له عين باب سحرية ويد مزلاج أمان. الأولى للتحديق في الغرباء واللصوص وحتى الأشباح، والثانية لحبسهم في الخارج. وعلى سبيل الاحتياط والتأهّب يحتفظ تحت قميصه بسترة النجاة الموجودة عادةً تحت مقاعد الطائرة وسترة أخرى واقية من الرصاص. الأولى تحسّباً للكوارث الطبيعية، والثانية تحسّباً للقتلة وغير القتلة أولئك الذين يفتقرون إلى مهارة التصويب. وفي الذاكرة تقبع، بجوار اسمه وبياناته الشخصية، العشرات من مخارج الطوارئ ـ لكل المباني التي عاش فيها أو قام بزيارتها ـ وخطط الإخلاء المعتمدة عالمياً. وفيما لو انتفض من مقعده في المكتب أو المقهى وانطلق يعدو مثل ريح فلأن إحدى أجهزة إنذاره السرية كشفت عن حريق قد لا يكون وهمياً.

بـراري الجدار

عاش رأس الوعل قبل تحنيطه في جبال القوقاز، ولم يُصَب يوماً بفوبيا المرتفعات حتى عندما انتقل للعيش في الوهاد. كان عليه لمجاراة رتم الحياة المدنية أن يتخلّى عن حذر الطريدة كما تخلّى جاره الصياد عن بندقيته وباتا يقضيان ـ هو والبندقية على الجدار ذاته ـ لياليهما معاً في متابعة التلفاز. كانت البندقية تفضّل بطبيعة الحال مشاهدة أفلام رعاة البقر، أما الوعل فكان يميل إلى قنوات ناشيونال جيوغرافيك ويتمنّى لو يقفز على الأقل من جدارٍ إلى آخر.

هوايات المجنون

كان المجنون يقضي وقته بلا كلل في تعليم الأحجار الهامدة الطيران. الأمر عنده لا يتعلّق بالأجنحة ولا بقانون برنولي قدر تعلّقه بالرغبة الجامحة في العلو. كانت الأحجار بدورها تتثائب ـ دون أن تتعمّد التقليل من احترامه ـ وتغطّ في نومٍ عميق وهانئ. لم تكن له كفاءة الريح فيجعلها تتطاير مثل سربٍ من الحمام. كان الجبل أيضاً يتجاهل تمارين الحركة ولا يبدي رغبةً في الإنصات إلى مواعظه الطبية حول ضرورة المشي وفوائده الصحية والنفسية، ولا يمانع الغرق مرّةً أخرى فيما لو عاد الطوفان. ينتابه اليأس فيشتم الجبل وكسله الشديد فتردّ عليه ظاهرة الصدى الطبيعية لتعيد إليه الأمل في كون جهوده الجبارة لم تضِع سدى، فها هو الجبل ينجح في محاولته الأولى للنطق.

آدم

كان الأبيض آدم الألوان، حقل قطن لا نهائي من النوايا الطيّبة. ثم ابتكرت التفاحة اللون الأحمر أو لعلها الرغبة أو حواء. أما اللون الأسود فهو لون الضغينة ـ أجزم أن صوته يشبه صرير الأسنان ـ ومكتشفه هو العالِم قابيل. كان لوناً شديد الكثافة مثل القطران وبوسعه أن يحوّل طائراً بريئاً لا يمل التلويح للمسافرين كالنورس إلى طائرٍ مشؤوم كالغراب، بل بوسعه أيضاً أن يجعل من السادسة الوديعة صباحاً ساعة متأخّرة من الليل. ثم اندفعت بعض الألوان المؤقّتة والثانوية من الصفرة الفاقعة للذهب والبول أو الحمرة الباهتة للخجل والحلمات. ألوان أخرى أيضاً لم نكن بحاجتها جاءت فقط للتسلية مثل الألعاب النارية. حتى أشعل أحدهم سيجارة أو ألقى بقنبلة فكان الرماد هو اللون الأخير.

تفاحة حواء

قد تبدو من بعيد أشبه بكرة صوف تغزل منها الجدة كنزةً لحفيدها. قد تبدو قطةً حديثة الولادة تكوّرت من البرد والخوف. عندما يفكّر أحدهم بلمسها وتهدئتها سينزع دون أن يدري مسمار الأمان لقنبلة يدوية خلّفها أحد الجنود الفارين إبّان الحرب العالمية الثانية.

فارق هائل في التوقيت

كان عجولاً إلى درجةٍ تجعله يبتعد كثيراً عن ظلّه، حتى أقداره كانت تواجه صعوبةً في اللحاق به. أمّا المصادفات فلم يكن يسمح لها بالحدوث، كان يباغتها على الدوام مثلما يقع المرء على هدايا عيد ميلاده قبل أيام فلا تفاجئه مجدّداً. لم يشكُ يوماً من فوات الأوان، لأنه ببساطة يستبق الأشياء فكأنها قد حدثت منذ زمنٍ بعيد، وإن لم تحدث حتى الآن. يمكن القول أنه ردة الفعل في قانون نيوتن الثالث لفعلٍ لا وجود له في الأساس، أو سرعة القذف دونما انتصابٍ أو نشوة. كان استعجاله الشديد يُفقِد الأشياء منطقها ودورتها الضرورية. يكاد يختنق مثلاً في موعده الغرامي الأول كما لو أن هذه الفتاة أنجبت للتو طفله السابع وباتت الحياة في بيته لا تُطاق. كان يعيش حياته بفارقٍ هائل في التوقيت ـ تسع ساعات تقريباً كما لو كانت حياته تقع بعيداً هناك في المكسيك أو السالفادور ـ والمصيبة أن هذا الفارق يتّسع يومياً وتتراكم تلك الساعات لتغدو أياماً وأسابيع مما يعني أن حياته تقع الآن في دولةٍ بعيدةٍ على كوكبٍ بعيد.

الفهرس

الإهداء 7
موسيقى تصويرية 9
خيارات التقدّم في السن 10
كارما 11
قفزة الثعلب 12
فن التخلي 13
إرنستو تشي جيفارا 14
كلمات أخيرة قبل الانتحار 15
خزي 16
تاريخ آخر 17
حيوات جان فالجان 18
موهبة الصدى 19
خصوصية 20
فوبيا 21
تحوّلات 22
عقوق 23
كازانوفا 24

أحزانٌ ثقيلة 25
تحضير أرواح 26
السعادة 27
كان مشوّشاً فقط 28
حذاء رياضي للمشي 29
كوابيس الصحو 30
قارئة 31
حياة سريعة 32
القروي الأخير 33
يوم سيئ 34
آنسات هوبر 35
بعد أربعة أيام من انتهاء الحرب 36
أبوّة 37
ساعة الحائط 38
جمجمة أودري هيبورن 39
الحالم 40
انفصال 41
تنويعات قدرية 42
خوف 43
العيش في القطارات 44
عربة تسوّق 45
أعطال زمنية 46
كانت أحلامه تتحقّق 47
بمجرد التفكير بها 47
رُزنامة من يوم واحد 48

البكر 49
حروب لا إرادية 50
ميعاد 51
حياة فائضة عن الحاجة 53
ثقوب 54
عذابات الجنرال 55
هندسة الخلاص 56
نزلة برد 57
حدبات لا مرئية 58
معجزات منزلية 59
مايسترو 60
لا مبالاة 61
قلق 62
تيكيلا 63
ثلاثة أهداف نظيفة 64
رصاص متجوّل 65
نهاية العالم 66
مشادة كلامية 67
مفاتيح الأب 68
اضطرابات عاطفية 69
لحياةٍ أخرى 70
ثأر 71
كحول 72
حياة على الرف 73
في يوم الأب العالمي 74

أصوات 75
التفاتة واحدة فقط 76
شيخوخة 77
غابات حديثة 78
خاطر سوريالي 79
هذيان 80
نرد بلا أرقام 81
السفر خارج هوليوود 82
ضيف 83
احتياطات أمنية 84
براري الجدار 85
هوايات المجنون 86
آدم 87
تفاحة حواء 88
فارق هائل في التوقيت 89

فنّ التخلّي

مجموعة قصصية

في شقته الصغيرة بالطابق التاسع عشر، اعتاد أن يعيش وحيداً منذ زمن، وسيبقى كذلك حتى آخر يوم في حياته، لأنه كان يخلط بين الحب والألفة. كانَ يخلط أيضاً بين أصيص الزهور ومنفضة السجائر عندما يدخن للدرجة التي كاد يفقد معها القليل المتبقي من عقله إذ صار للرماد منظر الزنابق. وعندما بات يخلط بين الجدار والمرآة آمن بقدرته الخارقة على أن يكون لا مرئياً في بعض الأوقات. في يومه الأخير سيخلط بين السماء والبحر، وستعتريه رغبة عارمة بالذهاب هناك ولكنه للأسف سيخرج من النافذة التي صار يخلط بينها وبين الباب وسيتمزق جسده أمام دهشة المارة الذين سيخلطون بدورهم بين رغبته في السباحة والانتحار.

لوحة الغلاف: رافائيل سوير

ISBN 978-9938-886-77-1

السّوير للطباعة والنشر والتوزيع

تونس - بيروت - القاهرة